المحاضرة الثانية: المعلقات مضامينها وأساليبها

تمهيد:

يشكل الشعر الجاهلي تراثا لغويا وأدبيا، ووثيقة تاريخية يمكن من خلاله معرفة حياة العرب في شبه الجزيرة العربية، ونظمهم وكيف عاشوا في تلك القرون الغابرة، وكيف تشكل المجتمع آنذاك، انطلاقا من القبيلة التي ينشأ فيها العربي، إذ تُوَفِّرُ له الحماية والملاذ، يقول الدكتور علي مصطفى عشا: "مثلت القبيلة خيارا حقيقيا للإنسان الجاهلي الذي وجد نفسه ي عالم مستغلق بسبب معطيات الجدب والحرب، وما نتج عنهما من مأسسة للقوة التي حاولت فرض معاييرها كمرجعية جوهرية يقوم عليها البناء القيمي في المجتمع القبلي الجاهلي" [1]؛ فقد فرضت الظروف القاسية على الإنسان الجاهلي أن يجد لنفسه تكتلا يحتمي بداخله يشبه مؤسسة سياسية اجتماعية، لها أعرافها وتقاليدها الملزمة للجميع.

تعريف المعلقات:

حظيت المعلقات باهتمام العديد من النقاد والدارسين قديما وحديثا، وتعد المعلقات من أهم القصائد التي وصلت إلينا من شعر ما قبل الإسلام أو ما يطلق عليها فترة الجاهلية، وهي صورة صادقة عن حياة العرب في ذلك العصر، ولعل سبب هذا الاهتمام بالمعلقات هو تلك الميزات التي تميزت بها "من سمو الأداء الفني، وعمق في المعنى، واتساع في الخيال، وبراعة في الأسلوب" [2]. وقبل الحديث عن أهم القضايا التي تتصل بالمعلقات، لابد من الإشارة إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي للمعلقة.

فالمعلّقات لغةً من العِلْق: وهو المال الذي يكرم عليك، تضنّ به، تقول: هذا عِلْقُ مضنَّة . وما عليه علقةٌ إذا لم يكن عليه ثياب فيها خير ، والعِلْقُ هو النفيس من كلّ شيء ، وفي حديث حذيفة : «فما بال هؤلاء الّذين يسرقون أعلاقنا» أي نفائس أموالنا . والعَلَق هو كلّ ما عُلِّق .

تسمية المعلقات: وردت روايات كثيرة في قضية تسمية المعلقات، نذكر منها ما جاء في كتاب:" جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام"، لأبي زيد القرشي، قوله:" والقول عنهم ما قال أبو عبيدة: امرؤ القيس بن حجر بن عمرو، وزهير بن أبي سلمى، ونابغة بني ذبيان، والأعشى البكري، ولبيد بن ربيعة، وطرفة بن العبد، هؤلاء أصحابُ السبعة الطوال التي تُسميها العرب السُّمُوط،فمن زعم أن في السبعة شيئًا

---

[1] - علي مصطفى عشا: جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، ص01، وينظر، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص14.

[2] - علي مصطفى عشا: جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، ص01، وينظر، أحمد أمين: فجر الإسلام، ص14.

لأحد غيرهم فقد أخطأ، وخالف ما أجمع عليه أهلُ العلم والمعرفة، وليس عندهم فيهم خلاف، ولا في أشعارهم "[1]؛

بنية المعلقة وأقسامها:

وتقوم القصيدة على بنية فنية تعكس من خلالها طريقة الشاعر، وقد تحدث النقد القديم عن التقاليد الفنية للقصيدة العربية القديمة، وسبق وأن حدد ابن قتيبة تلك العتبات الفنية بنص نقدي يمتاز بالدقة، يقول فيه: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظغن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفَرْط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب؛ لِما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقًا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم، حلال أو حرام"[2]؛

وبعدها ينتقل إلى الرحلة فيقول:" فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكأفاة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغَّر في قدره الجزيل"[3]؛ ويشرح الدكتور جهاد المجالي قضية التناسب بين أقسام المعلقة وعلاقته بنفسية المتبقى، بقوله:"يطالب ابن قتيبة الشعراء بالاعتدال والتناسب بين هذه الأقسام فلا يطول قسم على حساب آخر حتى لا يبعث على الملل، ولا يقطع في قسم حيث في النفوس حاجة"[4]

ثم يوضح ابن قتيبة أن هذا التقليد الفني مفروض على الشاعر من ناحية الشكل الهندسي للقصيدة المعلقة، فيقول:" فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيُمِل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظماءٌ إلى المزيد... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛

---

[1]- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام،تحقيق محمد علي البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة،مصر، (د.ت) ص 97-98.

[2]- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ت أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر،1958، ج1، ص ص 74.

[3]- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج1، ص ص 74.

[4]- **جهاد المجالي: طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب**، ، ص 200.

لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري؛ لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة"[1].

ويلخص على الجندي أقسام المعلقة بقوله:"كان الشاعر الجاهلي يبدأ قصيدته –إذا كانت تتضمن أفكارًا كثيرة متعددة –بافتتاحية يجعلها مقدمة لما سيأتي بعدها، وكان أكثر هذه الافتتاحات دورانًا على ألسنة الشعراء الحديث عن الأطلال وارتحال الحبيبة وأثرهما في نفس الشاعر، وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله عند الكلام عن بدء المعلقات"[2]؛ وبناء على هذا فإن أقسام المعلقة تأتي كالآتي:

المقدمة:

تعد مقدمة القصيدة العربية بمثابة المدخل الذي يصادفه المتلقي وأول ما يشده إلى موضوعها، ولذلك حرص الشعراء على تجويدها وتنويع اتجاهاتها؛ بين مقدمات أساسية؛ تبدأ بالطلل، والغزل، والخمر، ومقدمات ثانوية؛ تمهد ببكاء الشيب والشباب، ووصف طيف المحبوبة. وعلى أية حال فقد جاءت مقدماتهم مشتملة على التقاليد الفنية التي انتقلت إليهم من المشرق العربي؛ معبرة عن اكتمال البناء الفني للقصيدة العربية القديمة.

أ– مقدمات أساسية:

1– المقدمة الطللية: الوقوف على الأطلال هي ظاهرة برزت عند الشعراء الجاهليين، فقد افتتحوا قصائدهم بالوقوف على الأطلال، أي بالوقوف على آثار ما تبقى من ديار المحبوبة. ومن الصور الشائعة في المقدمة الطللية أن يبدأ الشاعر بذكر الديار وقد عفت أو كادت آثارها أن تمحى، ثم يذكر الديار ويحدد مكانها بذكر ما جاورها من مواضع، ثمّ ينعتها بعد أن سقطت عليها الأمطار، ونما عليها العشب فاتخذتها الحيوانات مرتعا تقيم فيه وتتوالد._وفي هذا يقول الدكتور حسين عطوان:"رأينا صورة هذه المقدمة بألوانها وخطوطها واضحة مشرقة في قصائد امرئ القيس وعبيد وطرفة...ويلاحظ أنها أكثر المقدمات انتشارا في صدور قصائد الشعراء الجاهليين"[3]؛ ومن نماذج المقدمة الطللية في شعر المعلقات، قول امرئ القيس: [4]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ في عَرَصَاتِهَا وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأَنِّيْ غَدَاة البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

---

[1]- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ت أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر،1958، ج1، ص ص 74.

[2]- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي ، ص286 .

[3]- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر،(د.ت)، ص 116.

[4]- أحمد بن الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار قائليها، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر،1331هـ، ص50.

وُقُوْفًا بِهَا صَحْبِيْ عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفَائِيْ عَبْرَةٌ مَهرَاقَةٌ فهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ
فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّيْ صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي
أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ وَلا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ
وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِيْ فَيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ
يَظَلُّ العَذَارَى يَرْتَمِيْنَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

ومن **المقدمات الطللية** في شعر المعلقات **مقدمة معلقة عنترة بن شداد العبسي** التي يقول فيها:

هَلْ غَادَرَ الشّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي
فَوَقَفْتُ فِيها نَاقَتي وكَأَنَّها فَدَنٌ لأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ
وَتَحُلّ عَبْلَةُ بالْجِوَاءِ وَأَهْلُنَا بالْحَزْنِ فَالصَّمَانِ فَالْمُتَثَلَّمِ
حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمّ الْهَيْثَمِ
حَلّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَيّ طِلابُكَ ابنَةَ مَخْرَمِ

ومن **المقدمات الطللية** في شعر المعلقات **مقدمة معلقة زهير بن أبي سلمى** التي يقول فيها:

أمِنْ أُمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلّمِ بِحَوْمَانَةِ الــدّرّاجِ فالْمُتَثَلَّمِ
وَدَارٌ لَهَا بالرّقْمَتَينِ كأنّها مراجيعُ وشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ
بها العِينُ والأَرْآم يَمشينَ خِلْفَة وأَطْلاؤهَا يَنْهَضْنَ من كل مِجْثَمِ
وقفْتُ بها من بعدِ عشرِينَ حِجَّةً فلأيًا عَرَفْتُ الدّار بَعْدَ تَوهمِ
أَثافِيَّ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ وَنُؤيًا كجِذْم الحوْضِ لم يتثلَّمِ
فَلَمّا عَرَفْتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِهَا أَلَا انْعَمْ صباحًا أيها الرَّبع واسلَمِ

1- المقدمة الغزلية: هي النوع الثاني من المقدمات الأساسية التي نجدها في شعر المعلقات العشر؛ وفيها يقول الدكتور حسين عطوان:"وافتتح الشعراء الجاهليون قصائد كثيرة كثرة مفرطة بالمقدمة الغزلية. وتتألف هذه المقدمة من الحديث عن صد المحبوبة وهجرها أو بعدها وانفصالها"[1]؛ ومن صورها في شعر المعلقات، قول الأعشى في صدر معلقته: [2]

وَدِّع هُرَيرَةَ إِنَّ الرَكــبَ مُرتَحِلُ وَهَل تُطيقُ وَداعــاً أَيُّها الرَجُلُ
غَرّاءُ فَرعاءُ مَصقولٌ عَوارِضُها تَمشي الهُوَينا كَما يَمشي الوَجي الوَحِلُ
كَأَنَّ مِشيَتَها مِن بَيتِ جــــارَتِها مَرُّ السَحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ
تَسمَعُ لِلحَلي وَسواساً إِذا اِنصَرَفَت كَما اِستَعانَ بِريحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ
لَيسَت كَمَن يَكرَهُ الجيرانُ طَلعَتَها وَلا تَراها لِسِرِّ الجارِ تَختَتِلُ
يَكــادُ يَصرَعُها لَولا تَشَدُّدُها إِذا تَقومُ إِلى جاراتِها الكَسَلُ
إِذا تُعالِجُ قِرناً ساعَةً فَتَرَت وَاِهتَزَّ مِنها ذَنوبُ المَتنِ وَالكَفَلُ
مِلءُ الوِشاحِ وَصِفرُ الدَرعِ بَهكَنَةٌ إِذا تَأَتّى يَكادُ الخَصرُ يَنخَزِلُ
صَدَّت هُرَيرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا جَهلاً بِأُمِّ خُلَيدٍ حَبلَ مَن تَصِلُ
أَأَن رَأَت رَجُلاً أَعشى أَضَرَّ بِهِ رَيبُ المَنونِ وَدَهرٌ مُفنِدٌ خَبِلُ

موضوعات المعلقات ومضامينها:

وبناء على هذا العقد حدد بطرس البستاني الأغراض الشعرية التي تدور فلك العصبية القبلية في العصر الجاهلي في أربعة فنون، هي: الفخر والحماسة، والمدح، والرثاء، والهجاء، يقول في هذا: "وكما وجهت القبيلة فارسها لمحاربة الأعداء والاثخان فيهم، ولحماية الأهل والمال، فكذلك وجهت شاعرها للإشادة بأيامها ومفاخرها، ولهجاء القبائل المعادية والرد على شعرائها، فاستأثرت المهمة القبلية بالأبواب الأربعة الرئيسة في الشعر الجاهلي، وهي: الفخر والحماسة، والمدح والرثاء، والهجاء فارتفع مقام الشاعر ارتفاع مقام الفارس" [3]. ويؤكد الدكتور إحسان سركيس أن "صفة القبلية"، قضية تمس الشعر الجاهلي في أغلب القصائد، يقول: "وبحسبنا التأكيد على أن التعبير عن الحياة القبلية في العصر الجاهلي، موضوع مشترك في معظم القصائد، وهذا ما يترك هذه المسحة من التشابه والرتابة سواء في الشكل أو في الموضوعات التي تخفف منها ذاتية كل شاعر" [4].

---

[1]- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر،(د.ت)، ص 128.

[2]- أحمد بن الأمين الشنقيطي: المعلقات العشر وأخبار قائليها، مكتبة الخانجي القاهرة، مصر،1331هـ، ص50.

[3]- بطرس البستاني: الشعراء الفرسان، ص12.

[4]- إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1979، ص 107.

موضوع الفخر [1]:

حظي غرض الفخر بتعريفات عديدة أذكر منها ما أورده الدكتور غازي طليمات وعرفان الأشقر في كتابهما: (الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه): "الفخر في الاصطلاح النقدي غرض من أغراض الشعر ينطوي على زهو الشاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو وليد الأثرة والإعجاب بالذّات، وإذا كان الإنسان مفطورا على حب نفسه والإدلال بها وبمآثرها فالشاعر المتميز برهافة الحس، وفصاحة اللسان وجمال التعبير والتصوير أقدر من سواه على التفاخر وأجدر به" [2].إن الإعجاب بالذات والرغبة في إبراز محاسنها سبب ذاتي للشاعر ليفخر بنسفه أولا، ثم يحول هذا الفخر من ذاته إلى دائرة أوسع منه هي القبيلة، وبهذا يكون التعصب عاملا من عوامل ازدهار هذا الغرض في العصر الجاهلي.ويفسر غازي طليمات نشوء الفخر ضمن إطار الحياة الاجتماعية للعربي، فيقول: "ربما كان لطبيعة المجتمع القبلي أثرها القوي في نزوع الشاعر الجاهلي إلى الفخر، ففي هذا المجتمع البدوي يقدر الناس الحمية والأنفة والعزة وقوة العضل والعصب، والصبر على المكاره، ويتغنون بالشجاعة والاندفاع وحماية العرض، والذود عن الحمى، فتتحول هذه المعاني والقيم إلى دستور أو ما يشبهه الدستور يلتزمه البدو ويتواضعون على الأخذ به"[3].

يصنف الدكتور محمد النويهي غرض الفخر في الشعر الجاهلي ضمن دائرة القيم الاجتماعية التي تحكم حياة الشاعر العربي، فهو يفخر بقبيلته، يقول في هذا: "أن الشاعر مهما يكن من عبقريته وأصالته وتفرده، يتأثر في التكوين النهائي لطبيعته الفنية بأحوال الجنس والعصر التي عاش فيها، من سياسة ومعايشة مادية وفكرية"[4]؛ وهذا يفسر سطوة النظام القبلي على الفرد سياسيا واجتماعيا، وحتى فنيا. ويؤكد الدكتور محمد بن زلوي هذا بقوله: "ولا ريب أن دارس الشعر الجاهلي حين يستقرئه –أو معظمه– سوف يلاحظ وضوح ملكته الشعرية من أجلها ومرد هذه الغلبة للروح الجماعية في الشعر هو بلا شك طبيعة الصحراء القاسية، التي تحتم انتماء الإنسان إلى جماعته، ولواذه بحمايتها، كما تحكم عليه بالهلاك إذا

---

[1]– ابن منظور المصري: لسان العرب، مادة: (ف، خ، ر).

[2]– غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه وفنونه، ط1، مكتبة الإيمان دمشق، سوريا، 1992، ص 135.

[3]– المرجع نفسه، ص ص135–136.

[4]– محمد النويهي: الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت)، ص 209.

تفرد وانعزل" [1]. ولم يكن للشاعر بد من أن ينتمي إلى قبيلته ويذوب في إطارها الاجتماعي والقبلي، وفي هذا السياق يؤكد يوسف خليف أن التعصب للقبيلة حتمية اجتماعية فرضا النظام الجماعي، "ولم يكن الشعراء في العصر الجاهلي إلا أفرادا من ذلك المجموع الذي كان يؤمن بالعصبية القبلية إيمانا جعل منها الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الجاهلي ومحورا تدور حوله أوضاعه وتقاليده ونظمه الاجتماعية، عليهم أن يؤمنوا بقبائلهم، وأن يقفوا عليها فنهم" [2]. ومعنى هذا أن القبيلة أو النظام القبلي في العصر الجاهلي يشكل إطارا اجتماعيا تذوب فيه شخصية الشاعر، وتقلُّ ذاتيته. لقد تعددت مظاهر العصبية القبلية في العصر الجاهلي، وبرزت في أشكال تعبيرية، منها الشعر الذي كانوا يتقنونه، ولعل أبرز مظاهرها الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب؛ فقد كان التفاخر والتعاظم سمة من سمات أهل الجاهلية، ويعلق أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" على هذه السمة التي تغذيها العصبية القبلية، بقوله: "وكان قد تم اعتقاد العرب بأنهم في أنسابهم يرجعون إلى أصول ثلاثة: ربيعة ومضر واليمن، وأخذ الشعراء يتهاجون ويتفاخرون طبقا لهذه العقيدة" [3].

من نماذج الفخر القبلي قصيدة (معلقة) عمرو بن كلثوم التغلبي التي قول فيها [4]:

وَرِثْنَـــا المَجْـــدَ قَـــدْ عَلِمَـــتْ مَعَـــد ... نُطَـــاعِنُ دُوْنَـــهُ حَـــتَّى يَبِيْنَـــا

وَنَحْـــنُ إِذَا عِمَـــادُ الحَـــيِّ خَـــرَّتْ ... عَـــنِ الأَحْفَـــاضِ نَمْنَـــعُ مَـــنْ يَلِيْنَـــا

نَجُـــذُّ رُؤُوْسَـــهُمْ فِـــي غَيْـــرِ بِـــرٍّ ... فَمَـــا يَـــدْرُوْنَ مَـــاذَا يَتَّقُوْنَـــا

بِشُبَّـــانٍ يَـــرَوْنَ القَـــتْلَ مَجْـــداً ... وَشِيْـــبٍ فِـــي الحُـــرُوْبِ مُجَرَّبِيْنَـــا

أَلاَ لاَ يَجْهَلَـــنَّ أَحَـــدٌ عَلَيْنَـــا ... فَنَجْهَـــلَ فَـــوْقَ جَهْـــلِ الجَاهِلِيْنَـــا

مَتَـــى نَعْقِـــد قَرِيْنَتَنَـــا بِحَبْـــلٍ ... تَجُـــذَّ الحَبْـــلَ أَوْ تَقْـــصِ القَرِيْنَـــا

---

[1]– محمد بن زاوي: الاستلاب في الشعر الجاهلي، مجلة الآداب العدد 08، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر، ص 49.

[2]– يوسف خليف: راسات في الشعر الجاهلي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1981، ص 173.

[3]– أحمد أمين: فجر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2011، ص

[4]–

وَنَحْـــــنُ الحَابِسُـــــوْنَ بِـــــذِي أَرَاطَـــــى تَسَـــــفُّ الجِلَّـــــةُ الخُـــــوْرُ الدَّرِيْنَـــــا

وَنَحْـــــنُ الحَاكِمُـــــوْنَ إِذَا أُطِعْنَـــــا وَنَحْـــــنُ العَازِمُـــــوْنَ إِذَا عُصِيْنَـــــا

وَنَحْـــــنُ التَّـــــارِكُوْنَ لِمَـــــا سَخِطْنَـــــا وَنَحْـــــنُ الآخِـــــذُوْنَ لِمَـــــا رَضِيْنَـــــا

وَنَشْـــــرَبُ إِنْ وَرَدْنَـــــا المَـــــاءَ صَفْـــــواً وَيَشْـــــرَبُ غَيْرُنَـــــا كَـــــدِراً وَطِيْنَـــــا

لنـــــا الـــــدنيا ومـــــن أمســـــى عليهـــــا ونـــــبطش حـــــين نـــــبطش قادرينـــــا

بغـــــاة ظـــــالمين ومـــــا ظلمنـــــا لكنـــــا ســـــنبدأ ظالمينـــــا

يبدو الشاعر مفتخرا بنفسه، وبشجاعته كفرد "فقد ساد قومه وهو يافع طلعة، غير أنه لم يسرف في هذا الضرب من الفخر، ولم يحمله العجب على الجبروت، وإنما عرف كيف يرضي نفسه، ويرضي قومه على طريقة السياسي المحنك الذي يمجد الأمة ويعني نفسه، ويتغنى بالشعب ليحمله على الانصياع له ويشركهم في جلائل أعماله ليرددوا ذكرها وذكره صباح مساء واهمين أنهم شركاؤه في المحمدة، وهم في حقيقة الأمر يسبحون له" [1]. لقد حاول غازي طليمات أن يقدم الأسباب والدوافع التي تبعث الشاعر عمرو بن كلثوم على الفخر؛ حيث رد بعضها إلى الذاتية المرتبطة بالشاعر ولكنه عاد ليفسر كل ذلك بغاية الشاعر أو مقصديته من غرض الفخر وهو نيل الشهرة والسمعة مع قبيلته من خلال اضمحلال 'الأنا" في "النحن" يقول في ذلك: "إذا جاز لنا في دراسة الشعر القديم أن نحتكم إلى النقد الحديث، فسنتعير من الدراسات اللسانية والبنيوية ما يعيننا على إثبات ما نزعم قلنا: إن بناء القصيدة يبين لنا كيف يبتلع الكلي الجزئي، ويمتزج الخاص بالعام، ويفنى الفرد في الجماعة، ويطغى ضمير القوم (نحن) على ضمير الزعيم الفرد (أنا)" [2]. إن واقع الحياة الاجتماعية والسياسية الذي يعيشه الشاعر يحتم عليه أن يدمج ذاته في ذات أكبر منه هي القبيلة، وأن يظهر تعصبه لها، وهو أمر طبيعي.وبهذا يتحول الشعر إلى أداة فنية تمتزج فيها النزعة الفردية (الذاتية) بالجماعة امتزاجا تاما، كما يتحول من مجرد إعجاب الشاعر بنفسه إلى إعجاب بالقبيلة.

---

[1]– غازي طليمات: الأدب الجاهلي، ص 400.

[2]–غازي طليمات: الأدب الجاهلي ، ص 400.

تفتخر القبيلة في الجاهلية بخروجها عن سيطرة الملوك الذين كانوا يفرضون عليها الجزية، "وتعد هذا المسلك من المفاخرة والمجاهرة ربا من الأنفة والحمية الجاهلية" [1]. ولنا في قبيلة "تغلب" خير مثال، فقد كانت من أقوى القبائل في الجاهلية، ولم ترض بأن يفرض ملك الحيرة سلطته عليها، فقتله "عمروا بن كلثوم" الشاعر حينما حاولت أم الملك أن تستخدم أمه ليلى بنت المهلهل، ووصف كيف قتل الملك مفتخرا بذلك، فقال [2]:

وأيـــــام لنـــــا غـــــر طـــــوال عصـــــينا الملـــــك فيهـــــا أن نـــــدينا

وســـــيد معشـــــر قـــــد توجـــــوه بتـــــاج الملـــــك يحمـــــي المحجرينـــــا

تركنـــــا الخيـــــل عاكفـــــة عليـــــه مقلـــــدة أعننتهـــــا صـــــفونا

4- الأنساب والأمجاد:

يعد النسب والمجد القديم من أهم المفاخر التي يذكرها الشاعر في وصف صراعه مع القبائل المعادية لقبيلته، "وربما كان هذا الضرب من الفخر نوعا من الصراع بين النظامين الملكي والقبلي، أي نوعا من الصراع بين القبائل التي تعودت الغزو" [3]. وكان سبب هذا الفخر هو استهانة الملوك بسادة القبائل والتقليل من شأنهم، فيرد شعراء القبائل بذكر أمجادهم وأنسابهم مفتخرين بها، كما فعل الشاعر عمرو بن كلثوم حين قال [4]:

ورثنـــا المجـــد مـــن علقمـــة بـــن ســـيف أبـــاح لنـــا حصـــون المجـــد دينـــا

ورثـــت مهلهـــلا والخيـــر منـــه زهيـــرا نعـــم ذخـــر الـــذاخرينا

وعتابـــــا وكلثومـــــا جميعـــــا بهـــــم نلنـــــا تـــــراث الأكرمينـــــا

[1]- غاي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص 150.

[2]- الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار مكتبة الحياة، القاهرة، مصر، 1983، ص117.

[3]- غازي طليمات: المرجع السابق، ص 152.

[4]- الزوزني: المرجع السابق، ص 122.

وذا البـــــرّة الـــــذي حـــــدّثت عنـــــه بـــــه نُحمـــــى ونحمـــــي المحجرينـــــا

ومنـــــا قبلـــــه الســـــاعي كليـــــب فـــــأي المجـــــد إلا وقـــــد ولينـــــا

5- السيادة وكثرة العدد والعتاد:

تفتخر القبيلة في الجاهلية بكثرة عدد فرسانها وقوة عتادها من السيوف والسلاح، وبهذه القوة والتعداد تحصل السيادة على غيرها من القبائل، "فإن كل قبيلة كانت تفاخر بسيطرتها، وتدعي بسط سلطانها على الناس، وتربط السيطرة بالكثرة والسيادة والسلاح" [1].

2- الهجاء:

احتل غرض الهجاء مساحة كبيرة في الشعر العربي القديم، وبخاصة في مرحلة الجاهلية، وارتبط هو الآخر بالقبيلة، يعرفه الدكتور نوري حمودي القيسي بأنه: "فن من الفنون القديمة في الشعر العربي، أوجدته المنافسات القبلية التي أرثها السعي وراء الكلأ والغدران، كما ساعدت على تسعيره الحروب المستمرة بين القبائل، فكانوا يتهاجون هجاءا مرا" [2]؛ حيث كان الصراع على أماكن الماء والكلأ سببا من أهم الأسباب التي ساعدت في ظهور فن الهجاء. وإذا كان المدح بيانا وإظهارا للمحاسن، فإن الهجاء على النقيض منه، فهو يبرز المساوئ والمثالب، يقول نوري القيسي: "والهجاء خلاف المدح، فهو يمثل ظاهرة السخط والسخرية، وتتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه لتكون مادته، فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشق منها مادته، والهاجي ينظر إلى خصمه لينشر مساويه، ساخرا منه، هازئا من سلوكه" [3].

ونظرا للمكانة الكبيرة لهذا الغرض الشعري في الأدب الجاهلي نجد قدامة بن جعفر جعله ضمن أقسام الشعر الستة في كتابه (نقد الشعر)، حيث قدم له تعريفا ونماذج شعرية [4]،

---

[1]- غازي طليمات: المرجع السابق، ص 153.

[2]- نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، ط1، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، 1964، ص 250.

[3]- المرجع نفسه، ص 250.

[4]- ينظر، قدامة بن جعفر: "نقد الشعر"، محمد عبد المنعم خفاجي، (د، ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص113.

نظرا لكثرة حروب الجاهليين وخصوماتهم، وتعدد أسباب ذلك نشأ ما يسمى الهجاء القبلي، الذي يسميه الدكتور محمد حسين الهجاء السياسي، ويعرفه بقوله: "نقصد بالهجاء السياسي الهجاء الذي يقوم على العصبية للوطن، فيهاجم كل ما يؤذيه أو يهدد كيانه، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة أو أحدها، ولا يكاد يحس شخصيته إلا في حدود هذه المجموعة" [1]؛ فالوطن في هذا التصور هي القبيلة والتعصب لها وحدها، فالعصبية قانون مفروض على الشاعر، وقد بنيت حياته على هذا الأساس.

إن القصائد الهجائية كثيرة في الجاهلية، تصور كلها العصبية القبلية، وسأكتفي بذكر قصيدة "للأعشى" يهجو يزيد بن شيبان أحد زعماء بكر يوم ذي قار لما تعصب لقومه، ومال الأعشى إلى جانب قيس بن ثعلبة، يقول فيها [2]:

ودع هريـــــــرة إن الركـــــــب مرتحـــــــل وهـــــل تطيـــــق وداعـــــا أيهـــــا الرجـــــل

وهي معلقة مختارة ضمن أجود المعلقات التي قيلت في الجاهلية، يصفها الدكتور غازي طليمات، فيقول: "معلقة الأعشى ليست أطول قصائد الديوان، وإنما هي أوفاها حظا من الجودة وأحفلها بالغزل والفخر، وأوثقها صلة بحياة الشاعر" [3].

ويمكن تقسيمها حسب الأغراض الشعرية إلى ما يلي:

أ- الغزل : من البيت 1 إلى 21.

ب- الوصف: من البيت 22 إلى 34.

ج- اللهو والمجون: من البيت 35 إلى 44.

د- الهجاء والفخر: من البيت 45 إلى 66.

هذا من حيث هيكل المعلقة، والأقسام الفنية التي تتكون منها -بصفة عامة- ولعل القسم الأخير هو الذي يعنينا في هذا الصدد، وهو "الهجاء" ومعه "الفخر"، لوقوعهما في سياق واحد، غير أن التركيز يكون على الهجاء.

---

[1]- م. محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص114.

[2]- الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشرمحمد محي الدين عبد الحميد، (د ط)، مكتبة محمد علي وأولاده، الأزهر، مصر، (د. ت)، ص 483.

[3]-غازي طليمات وآخرون: الأدب الجاهلي، ص 326.

ونظرا لجودة هذه المعلقة، فقد شرحها النقاد واللغويون قديما، ولقيت الاهتمام نفسه من الدارسين في العصر الحديث، فقد وصف غرض الهجاء الذي تضمنته المعلقة غازي طليمات: "لم يكن الأعشى يسف في الهجاء، ولا يسقط في معترك السباب، بل كان أكثر هجائه أقرب إلى "الهجاء القبلي"، وبعبارة عصرية كان أقرب إلى النقد السياسي" [1]، وربما يعود السبب في ترفع الأعشى عن السباب والفحش في القول إلى القيم الخلقية التي كانت فرضتها القبيلة، ورغبة منه في المحافظة على المكانة المرموقة التي بلغها بشعره.

جاء في المعلقة في هجاء يزيد بن شيبان قوله [2]:

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثبيت، أما تنفك تأتكل

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطّت الإبل

لأعرفنّك إن جدّ النفير بنا وشبّت الحرب بالطوّاف واحتملوا

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها، وأوهى قرنه الوعل

حيث يستخدم الأعشى أسلوب الزجر مع يزيد بن مسهر الشيباني ليدفعه إلى ترك الحقد الذي يأكل قلبه للانتقام من قبيلة الأعشى، ويخبره أن همته لا ترقى به إلى النيل ممن هم أقوى منه، وقدم له تشبيها يحمل واقعية في الوصف، وتحد في الصيغة حينما شبهه بالوعل الذي ينطح صخرة كبيرة بقرونه ليفتتها، فماذا كانت النتيجة؟ لم تنفلق الصخرة، ولكن قرون الوعل تكسرت، ويعلق الدكتور غازي طليمات على هذا الهجاء قائلا: "فهو –يعني الأعشى– لا يهجو ابن مسهر ليدفع أذاه عن نفسه، بل ليحمي القبيلة كلها من هذا الأذى" [3].ثم إن الهجاء في العصر الجاهلي يتصل بالأيام والحروب، وإظهار البطولات التي

---

[1]– غازي طليمات: الأدب الجاهلي، ص 333.

[2]– لأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر، ص 211.

[3]– غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص 334.

حققتها قبيلة الشاعر، في حربها على القبائل العربية الأخرى، وفيه تشيع روح الجماعة، وتختفي ذات الشاعر، "فهذا النمط من الهجاء كان بمثابة روح جماعية، من خلال رؤية الشاعر" [1].

3- المدح:

يحتل غرض المدح في الشعر الجاهلي منزلة كبيرة، ذلك لارتباطه بالقبيلة، و "لم يكن مدح الجاهليين في معزل عن السياسة، وكيف يمكن أن يزدهر في معزل عنها وأكثر الممدوحين ملوك وأمراء وقادة وشيوخ قبائل؟ ولكل واحد من هؤلاء دولة لها انصار وأعداء، أو إمارة تحارب وتسالم، أو قبيلة ذات مصالح تعارضها مصالح قبيلة أخرى" [2].

ويذهب الدكتور ناصر الدين الأسد إلى القول بأن القبيلة تفرض على الشعراء أن يمدحوها وذلك بالنظر إلى طبيعة الارتباط الذي بينهما، يقول: "كان هذا الشعر (المدح) عند غير المتكسبين بالمدح واجبا قبليا تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته، أو واجبا خلقيا تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه" [3].ويدور "المديح" في الشعر العربي حول مجموعة من المعاني، مستمدة من البيئة العربية في شبه الجزيرة العربية، كان الشعراء يمدحون بالجود والعزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء وإكرام الضيف ورعاية حقوق الجار وصفاء النسب" [4].

ومن أفضل شعر المديح في المعلقات عند زهير بن أبي سلمى ما جاء في معلقته حين مدح "هرم بن سنان" و "الحارث بن عوف" اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان، يوم "حرب السياق" واللذين حقنا الدماء وتحملات الديات [5]:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدّم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

---

[1]- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي قضايا، وفنونه، ص 102.

[2]- غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، ص172.

[3]- ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1956، ص622.

[4]- سراج الدين محمد: مديح في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، ص06.

[5]- المصدر نفسه، ص 14.

تـــداركتما عبســـا وذبيـــان بعـــدما تفـــانوا ودقـــوا بيـــنهم عطـــر منشـــم

وقـــد قلتمـــا إن نـــدرك الســـلم واســـعا بمـــال ومعـــروف مـــن الأمـــر نســـلم

فأصـــبحتما منهـــا علـــى خيـــر مـــوطن بعيـــدين فيهـــا مـــن عقـــوق ومـــأثم

يعلق الدكتور غازي طليمات على أبيات زهير –في معرض حديثه عن أنواع المدح، فيذكر المدح للشكر، فيقول: "قد يكون الصنيع الجدير بالشكر مكرمة ينتظم خيرها كثيرا من الناس، فتكون أجدر من معروف ينفع الشاعر وحده، وأولى المكرمات بثناء الشعراء، وأبعدها أثرا في حياة الناس ما صنعه الحارث بن عوف وهرم بن سنان إذ أصلحا بين "عبس" و "ذبيان" بعد أن كادت الحرب أن تطحن الفريقين"[1].وهنا يبرز الدكتور غازي طليمات البعد الاجتماعي لغرض المدح، عند زهير بن أبي سلمى، كما يتجلى من أبيات زهير أنه ينشد المثل الأعلى الذي ينبغي أن يكون عليه الرجل المثالي، أو سيد القبيلة، الذي يتميز بالفضيلة، والرجولة.

[1]– غازي طليمات: الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، ص165.